الأحد: 2023/11/05

التّوقيت: 14:50 – 16:20/ القاعة: 17 في الكليّة/ الفوج:1–2

التّوقيت: 16:30 – 18:00/ القاعة: 17 في الكليّة/ الفوج:3–4

الدرس رقم 06: التحليل التواصلي للخطاب

1/ التواصل من الناحية اللغوية والاصطلاحية:

لغة:

التواصل إذن إقامة علاقة تراسل وترابط وإرسال وتبادل وإخبار وإعلام.

اصطلاحا:

هو عملية نقل للأفكار والتجارب وتبادل المعارف بين الأفراد والجماعات، وقد يكون التواصل ذاتياً بين الإنسان ونفسه أي حديث النفس أو جماعياً بين الآخرين، وهو مبنى على الموافقة أو المعارضة والاختلاف، وهو يعد جوهر العلاقات الإنسانية.

يقول **شارل كولي** التواصل هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور، إنه يتضمن كل رموز الذهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان.

ويتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون وكل ما يشمله أخر ما تم من الاكتشافات في المكان والزمان.

وإذا ما اعتمدنا تعريف **صوفي موارون** فإننا نجدها تربط التواصل بمفهوم التفاعل بين طرفي التواصل قائلة يعتبر التواصل تبادلا تفاعليا بين شخصين على الأقل، ويتم هذا التبادل عبر استعمال علامات لفظية وغير لفظية، ويتناوب الأشخاص على إنتاج واستقبال الرسائل.

2/ وظائف التواصل:

نجد للتواصل وظيفتين أساسيتين:

أ – **وظيفة معرفية:** تتمثل في نقل الرموز الذهنية وتبليغها زمكانيا بوسائل لغوية وغير لغوية.

ب– **وظيفة تأثيرية وجدانية:** تقوم على العلاقات الإنسانية.

3/ عناصر التواصل:

يتأسس التواصل على ثلاثة عناصر هي:

1- الموضوع: وهو الإعلام أو الإخبار.

2- الآلية: التي تتمثل في السلوكات اللفظية أي عن طريق اللغة وغير اللفظية عن طريق التشخيص والتجسيد وهي آليات مكمّلة في الأصل للآليات اللفظية ووظيفتها.

3- الهدف: البعد المعرفي أو الوجداني أو الحركي.

فباللغة يتحقق التواصل والتفاعل الإيجابي بين أطراف الخطاب، ويقول **أندريه مارتيني:** "إن الوظيفة الأساسية للغة هي وظيفة التواصل ... وإذا كانت اللغة تتغير عبر الزمن، فلكي تتواءم بشكل أساسي مع إشباع حاجات التواصل للجماعة التي تتكلم تلك اللغة." فعبر آلية اللغة تستطيع أن تتمثل الكون والعلاقات والقوانين التي تسيره.

يقول طلعت منصور: "فباللغة يستطيع الإنسان أن يجرد هذا الوجود المادي والإنساني في خصائص وعلاقات وقوانين وأن يتحقق له الوعي بهذا الوجود والتحكم فيه".

فاللغة بهذا المعنى تساعد الإنسان على: التواصل مع الآخر وتمثل الوجود وتسخيره لصالحه، يقول **جون جوزيف** في كتابه (اللغة والهوية): "لقد عرف اللغويون والفلاسفة الغايات الأساسية للغة تقليديا من خلال أحد البعدين التاليين أو من خلالهما معا:

- التواصل مع الغير، إذ يستحيل على بني البشر العيش في عزلة.
- تمثل الكون لأنفسنا في عقولنا.

فالوظيفة الأولى للغة أنها تلبي حاجة التعايش مع الآخر، وهو جوهر التواصل.

يقول **طلعت منصور:** "الوظيفة الأولية للكلام واللغة – وهي الوظيفة الاتصالية– هي بالدرجة الأولى وسيلة المعاشرة الاجتماعية، وسيلة التعبير والفهم، ومن حقائق علم النفس استحالة الفهم وتواصله بين العقول بدون وجود تعبير وسيطي.

4/ التواصل عند رومان جاكبسون:

تبين لنا من خلال التعريفات السابقة أهمية اللغة كآلية أساسية للتواصل، كما بين ذلك العالم اللساني الأمريكي **رومان جاكبسون** الذي بين في كتابه "**قضايا الشعرية**" الصادر في الستينات مقومات التواصل اللساني ووظائف اللغة، فباللغة تتحقق الحاجات وبها يتواصل أفراد المجتمع وبها تزدهر الأمم.

ويقوم التواصل اللساني حسب **جاكبسون** على سنة عناصر أساسية كما بينها الباحث جميل حمداوي هي: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، القناة، المرجع، اللغة، وهذا يعني أن اللغة ذات بعد لساني وظيفي، وأن لها ستة عناصر وست وظائف: المرسل وظيفته الفعالية، والمرسل إليه وظيفته تأثيرية، والرسالة وظيفتها جمالية، والمرجع وظيفته مرجعية، والقناة وظيفتها حفاظية، واللغة وظيفتها وصفية وتفسيرية، وقد أثبته في كتابه: "اللسانيات والشعرية" سنة 1963م، حيث انطلق من مسلمة جوهرية، وهي أن التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة.

وقد تأثر جاكبسون في هذه الخطاطة التواصلية بأعمال فرديناند دوسوسير الذي عرف اللغة بأنها "نظام من العلامات وظيفتها الأولى هي التواصل" وكذلك بالفيلسوف المنطقى اللغوي جون أوستين.

5/ التواصل عند البلاغيين القدماء:

التواصل عملية إخبار وإعلام فهو يفترض وجود مخاطب ومخاطب ورسالة هي موضوع الخطاب وسياق مرجعي وزمان ومكان ومقصدية لذلك الخطاب، وحتى يتحقق ذلك الخطاب ويتحقق معه التواصل عبر عمليتي الفهم والإفهام التي تمثل مدار الأمر الذي يجري إليه القائل والسامع كما حدّدهما **الجاحظ** في كتابه "**البيان والتبيين**"، إذ يعتبر الجاحظ من أبرز المنظرين العرب في هذا المجال حيث استطاع التأسيس لنظرية التواصل، وأن يقف على أطرافها ويستبين وسائلها وأهدافها وتمثل عملية الفهم والإفهام الغاية من الكلام وذلك بكشف قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير بمراعاة مقتضى الحال ولكل مقام مقال.

يقول: "والبيان اسم جامع لكلِّ شيءٍ كشف لك قناع المعنى، وهتك الحِجاب دون الضمير، حَتَّى يُفْضِيَ السَّامِعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان،

ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع".

من هذا الكلام نفهم أنه لابد من توفر آليات لغوية وبلاغية وسياقية على وجه التحديد تمكن من تحقيق التواصل بين أطراف الخطاب تعني المتكلم والسامع.

ويقول **تمام حسان** في هذا المعنى مبرزا قيمة وظيفة الإبلاغ في عملية التواصل: [إن] النظر في تراثنا يكشف عن جهود جلية لعلماء التفسير والأصول والنقاد ثم البلاغيين في استخدام السياق بشقيه اللغوي والمقامي أثناء ممارسة قراءة النصوص الدينية والأدبية بهدف الكشف عن معانيها أو بيان بلاغتها، أو الوصول إلى أسرار جمالها. وعندي أن المعنى البلاغي للفظ البلاغي على معنى الإبلاغ أو التواصل هو موضوع من موضوعات علم الاتصال.

وإذا ما عدنا إلى تعريف **امبرتو إيكو** للتواصل فسنجده يعرفه بكونه سيرورة اجتماعية لا تتوقف عند حد بعينه، سيرورة تتضمن عددا هائلا من السلوكات الإنسانية: اللغة والإيماءات والنظرة والمحاكاة الجسدية، والفضاء الفاصل بين المتحدّثين ولهذا سيكون من العبث الفصل بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي.

تلك الرؤية الشاملة لعملية التواصل نجد إرهاصاتها لدى **الجاحظ** وهو يؤسس لمقومات البيان حتى تتحقق عملية الفهم والإفهام بين المتخاطبين وقد حدّدها في خمسة يقول: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نُصْبَة ويفصل الجاحظ الكلام في كل صنف من هذه الآليات مبرزا وظيفتها في عملية التواصل.

ويضيف **الجاحظ** مستشهدا بصحيفة **بشر بن المعتمر** مبرزا خصائص العملية التواصلية وآلياتها اللفظية والمقامية إذ يقول: "فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرفُ بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك

ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنّما مدارُ الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام".

كذا يولي الجاحظ في عملية التواصل عناية بالمتكلّم باعتباره الحلقة الفاعلة في دورة التخاطب مثلما يولي أهمية بالمخاطب باعتباره يمثل عنصرا أساسيًا لنجاح عملية التواصل وذاك ما يدفع المتكلم إلى مراعاة حاله وإنشاء الخطاب بما يقتضيه المقام وما يحفّ به من مؤثرات.

لقد جمع الجاحظ في نظريته أسس عملية التواصل من أطراف التخاطب ومن صنوف الآليات اللفظية اللغوية والبلاغية والآليات غير اللفظية السياقية والمقامية التي يمكنها أن تجعل عملية التواصل ناجحة وسنحاول تحليل هذه الآليات كالآتي:

1- **الآليات اللفظية أو اللغوية:** فتتمثل في اللغة في حدّ ذاتها بما تحمله من ألفاظ وتراكيب تخدم خطابا معينا ومن أساليب الإنشاء (كالاستفهام والأمر والنهي والطلب والنداء) وأساليب الإخبار التقريرية والنافية وأساليب علم المعاني (كالتقديم والتأخير والحذف والإضمار وغيرها) مما يخدم مقصدية الخطاب كما بيّنه **عبد القاهر الجرجاني** في كتاب "**دلائل الإعجاز**".

ونظرا لكون أفعال الكلام تحمل طاقات تداولية في الخطاب، والحوار، لاستلزامها حمل المخاطب على إنجاز فعل معيّن، فإنّ تلك الأفعال تهدف إلى مزيد تحقيق التواصل بين طرفي الخطاب.

2- **الآليات البلاغية:** فقد حدّدها المفكرون البلاغيون العرب القدامى ونقاد الأدب أمثال **الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والعسكري** وغيرهم مثلما حدّدها البلاغيون المحدثون في التشبيه والاستعارة والكناية، واجتمعوا على أنّ أهم آلية بلاغية الأكثر استعمالا في التواصل هي الاستعارة، ولئن اكتفى القدامى بدراستها في الخطاب الإبداعي، فإنّ المحدثين درسوها أيضا في الخطاب التداولي، ولاسيما في الخطاب اليومي.

فخطاباتنا اليومية كما بيّن لايكوف وجونسون في كتابهما **(الاستعارات التي نحيا بها)** هي خطابات استعارية بالأساس وحتى ندرك المعنى الاستلزامي للاستعارة لابد أن تتوفر بين المتخاطبين ثقافة ومعرفة مشتركة حول دلالات تلك الاستعارة حتى يتم الفهم والإفهام بينهما.

والقول الاستعاري قول حواري أي قول عملي وتلازم صفته العملية ظاهره البياني والتخييلي في ارتكاز الاستعارة على المستعار منه، سواء أصُرّح به أم لم يُصرح به، وغالبا ما يقترن هذا الطرف فيها حاليًا ومقاميًا بنسق من القيم العليا، فينزل منزلة الشاهد الأمثل، والدليل الأفضل، فتكون الاستعارة أدعى من الحقيقة تحريك همة المستمع نحو الاقتناع بها والالتزام بقيمها.

إن ما يميز الاستعارة أنّها تمثل طاقة بلاغية فاعلة في عملية التواصل وذلك بتحفيز الخيال والسماح بالانزياح والتكثيف الدلالي كما بيّن ذلك التداوليون فهي وسيلة إنتاج المعاني وتكثيفها وتأويلها وتكمن حجاجيتها في التغيير الذي تحدثه في الموقف الفكري والعاطفي للمتلقي، إذ تسمح له بمشاركة المتكلم في الفكرة والدعوى التي يدعيها، فضلا عن مشاركته أحاسيسه وانفعالاته.

إن الاستعارة في الدرس التداولي اليوم ليست مجرد زخرف وتزيين للعبارة كما هي في النسق الأرسطي التقليدي بل هي أداة تواصل وتفاعل بين طرفي الخطاب وتمثل الأساس في بناء تصوّراتنا في فهم العالم .

3- **الآليات التداولية:** يمكن حصرها أساسا في مبدإ "التعاون" أو ما يُسمّى بالاستلزام الحواري وإن أهم ما يميز الاستلزام من حيث كونه آلية من آليات إنتاج الخطاب، أنه يقدم تفسيرا صريحا لقدرة المتكلم على أن يعني أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما تؤديه العبارات المستعملة.

ومن أهم خصائص الاستلزام الحواري أنّه لا يقيم حدودًا فاصلة بين المكونات الدلالية والتداولية، وإنما تتضافر كلها لتشكيله لفك شفرة الرسالة اللغوية، ففي ضوء"الطبيعة الإنجازية" للخطاب يحدد المكون الدلالى الإرجاعات المحتملة للعلامة اللغوية، بينما يقوم المكون التداولي بإبراز مقصد المتكل.

فاستعمال جملة مثلا: "**ناولني الكتاب من فضلك**" المنجزة في مقام معين، يخرج بمعناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس، وهو ما تفيده القرينة "من فضلك".

إن عملية التواصل تلك تَتِمُّ في ضوء التعاون، "حُبّ الذات"، يُظهر المرسل تعاونا ما، إما بشكل ظاهري أو بشكل فعلي، ومهما يكن من أمر يفترض المتلقي تعاونا ما لا يتصل بمقول قول المرسل؛ بل يتصل بما يقصده المرسل، وهو ما عرف بـ"الاستلزام الحواري"، وقد تحدث عنه غرايس وهو يضع نحوا على أسس تداولية للخطاب ويكون ذلك بالنظر في معنى الجملة المتلفظ بها، ثم المقام الذي تنجز فيه الجملة، وأخيرا مبدأ التعاون.

ويؤكّد غرايس على أهمية مبدإ التعاون في عملية التخاطب حتى تتم عملية التواصل بنجاح لذلك يرى أنّه لا ينبغي للمتخاطبين أن يندفعوا إلى التبادلات الكلامية إلا وهم يسلّمون بالتعاون في ما بينهم، ثم إن الخطاب التداولي خطاب خاضع للسياق الذي قيل فيه وهو يمثل مجمل الظروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والاستعمال اللساني... وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعارف الشائعة بينهما على حد سواء.

وأصبح السياق مفهوما أساسيًا في النظريات التداولية بمختلف درجاتها وآلية رئيسية في تحليل الخطاب، ويمكن إبراز ذلك كالآتي:

أ – التداولية اهتمت بدراسة الرموز الإشارية ومرجعياتها في السياق التواصلي مثل الإشارات الزمانية والمكانية والضمائر وغيرها.

ب– التداولية اهتمت بدراسة المعنى الضمني للقول وهنا يتم توسيع مفهوم السياق ليشمل المعتقدات والمعلومات التي يشترك فيها المتخاطبون.

ج – نظرية أفعال الكلام التي أسسها أوستين وطوّرها من بعده سيرل تنطلق من مسلمة مفادها أن الأقوال الصادرة ضمن وضعيات محدّدة تتحوّل إلى أفعال ذات أبعاد اجتماعية.

يتبين لنا من خلال ما تقدم أهمية التواصل في حياة الأفراد والمجتمع إذ هو يحقق النفع والفائدة من خلال التعاون ثم هو يحقق علاقات تفاعلية اجتماعية ووجدانية.

ويمثل الخطاب أهم الوسائط التي تحقق ذلك التواصل عبر مختلف الآليات والقنوات أو العوامل المكونة لكل عملية تواصلية ولكل فعل تواصلي شفاهي كما تمثله رومان جاكبسون، وكما اتضح مع الكثير فإن الخطاب هو وحده من يقوم بعملية التواصل من خلال ما يحققه من أبعاد دلالية، ثمّ إنّه يمارس وظيفة الوساطة ويحصل ذلك سواء بين فرد وفرد من أجل ضمان التناغم الاجتماعي، أو بين الإنسان والعالم ليتحقق بينهما التوافق، أو بين جواهر الأشياء وأشكالها حتى تنتظم الرؤى وتحدّد الأفكار.